النص الأدبي ذات إنسانية حية ناطقة باسم المجتمع والثقافة

Literary text with a living humanity speaking in the name of society and culture

[1] عصماني حياة [1]*

[2] أ.د سعـاد بسناسي

[1] جامعــة وهـران 1 (الجزائر) hayetosmani41@gmail.com

2 جامعــة وهـران 1 (الجزائر) besnacisouad@yahoo.fr

[1] مخبر اللهجات معالجة الكلام

[2] مخبر اللهجات معالجة الكلام

تاريخ الاستلام:2021/11/30 تاريخ القبول: 2021/12/03 تاريخ النشر: 2021/06/01

الملخص:

تتبنى اللغة الكيان الجوهري للنتاج الفكري والنشاط العقلي الذي يشمل المعارف والعلوم الإنسانية والتقاليد والأعراف، مما يجعل الإنسان مترجما لجوهره الفكري ومحققا لتطوره الإنساني والعلمي معا، وهذا ما جعل الاهتمام باللغة بالغ الأهمية لتفرعها في كل مجالات الحياة تحقق حاجات الإنسان ومآربه، بحيث تعتبر الأساس الذي تقوم عليه العملية التواصلية، فبواسطتها يعبر الفرد ما يحمله من أفكار وتصورات ذهنية ومشاعر وسلوكيات عاطفية لتفرغ في قالب التعبير سواء الشفهي منه أو الكتابي ليحقق التفاعل التواصلي مع الآخرين سواء في معاملاته اليومية العادية أو في الإبداعات الفنية التي تفجر طاقات النابغين والمبدعين لتترجم في قنوات مختلفة من شعر ونثر ورسم وموسيقى ورقص وغيرها من الفنون، ويمثل النص الأدبي الحامل لكلا من الشعر والنثر اللّذان يعكس فيهما المبدع تجربته الفنية وما اكتسبه العقل من الحياة والمجتمع الذي ينتمي له، وإن صح التعبير يكشف عن مرجعيته الثقافية، وهنا يتبادر لأذهاننا كيف يعكس النص الأدبي عن مرجعية المبدع الثقافية؟ أو هل يمكن تناول النص دون لمس الخلفية الثقافية للكاتب؟ فهذا ما نحاول رصده في هذا البحث إلى أي مدى تظهر ثقافة المبدع ومرجعياته الإيديولوجية في إنتاجه

المؤلف المرسل: عصماني حياة

المنارة للاستشارات

ww

للنص الأدبي؟

الكلمـــات المفتاحـــية: النص الأدبي، الثقافة، الكاتب، المرجعية،الإيديولوجية.

SUMMARY

Language adopts the essential entity of intellectual product and mental activity, which includes knowledge, human sciences, traditions and customs, which makes man a translator of his intellectual essence and an investigator of his human and scientific development together, and this is what made the interest in language extremely important for its branching into all areas of life that fulfills the needs and goals of man, so that it is considered the basis on which it is based. Of the communicative process, by means of which the individual expresses the thoughts, perceptions, feelings, and emotional behaviors he carries in order to empty it into the form of expression, whether verbal or written, in order to achieve communicative interaction with others, whether in his regular daily dealings or in artistic creations that explode the energies of brilliant and creative people to be translated into different channels of poetry Prose, drawing, music, dance and other arts, and it represents the literary text that carries both poetry and prose in which the creator reflects his artistic experience and what the mind has acquired from life and the society to which he belongs, and if it is true it reveals his cultural reference, and here comes to our minds how the literary text reflects the creators' cultural reference ? Or can the text be addressed without touching the cultural background of the writer?

This is what we are trying to monitor in this research, to what extent do the creative's culture and ideological references appear in his production of literary text?

Key words: literary text, culture, writer, reference, ideology.

1– مقدمـــــــــــة:

اعتنت الدراسات اللسانية بملابسات النص الأدبي، فدرست النص من خلال الكاتب والمتلقي والسياق الخارجي والداخلي للنص الأدبي، الذي يمثل ظروف النص من خلال معايير مختلفة، ضمن نظريات متعددة، مثل البنيوية، الأسلوبية ونظرية جمالية التلقي، غيرها من الدراسات المختلفة للكشف عن المعاني السطحية والعميقة، للإبداع الفني، وتعد الثقافة التي تشبّع بها الكاتب من الظروف المؤثرة على

المنارة للاستشارات

ww

النص من خلال الكشف عن المرجعية الإيديولوجية التي تكشف من خلال النص عامة والنص الأدبي خاصة، وهذا ما نحن بصدد دراسته في هذا البحث، كيف يكشف النص عن المرجعيات الإيديولوجية والثقافية للكاتب.

بداية نحاول توضيح بعض المفاهيم الأساسية لهذا البحث، وباختصار نظرا لتعدد المفاهيم واتساعها حسب المجالات المختلفة المستعملة لهذه الأخيرة، مثل النص الأدبي والثقافة. (العشي، أسئلة شعرية، بحث في ألية الإبتداع الشعري، 2009)

1- مفاهيـــــــــم البحـــث:

2-1- ماهيـــة النـــص الأدبي:

فالنص الأدبي كما يعرفه الدكتور ظاهر محمد الزهراوي على أنّه: "ظاهرة إبداعية قابلة للقراءة في كل زمان ومكان، أو إنشاء لغوي، تسود فيه الوظيفة الجمالية والوظائف الأخرى كلها... فإنه خلق في اللغة، وعلاقة بين الناس والعالم يحياها الناس " (الزواهرة، ط 1 ، 2013، صفحة 22)، فبالإضافة للإبداع يشكل النص العلاقة القائمة بين الناس والعالم، فهو:" عملية إبداع، من كلام مؤلف وفق فكر وأسلوب مبدعه في زمان ومكان معينين، ويحمل وظيفة قائمة على التواصل مع المتلقي، وتوصيل المعلومات إليه في لغة مفيدة" (الزواهرة، ط 1 ، 2013، صفحة 23)، ومن هذا التعريف تظهر خصوصية النص الأدبي عن الآخر في ظهور أسلوب الكاتب والزمان والمكان اللّذان ينتمي إليهما، وعايشهما حيث يعكس الإبداع صورة الكاتب وتجاربه في الحياة، "فالأسلوب هو الرجل"، بحيث يحمل الأسلوب خاصية فردية، يمثل ذات الفرد، والشخص ذاته ونقطة تميزه عن الآخر، لكن هذه الخاصية ترسم ذاتها من الجماعة والمجتمع الذي عايشه الفرد مع الآخرين، فمهما تفرد واستقل بخصوصيته هو يمثل جماعته وانتماءه لها.

وهذا ما نلاحظه في تعريف سعيد يقطين للنص على أنّه :"بنية دلالية تنتجها ذات (فردية أو جماعة) ضمن بنية نصية منتجة، وفي إطار بنيات ثقافية أو اجتماعية محددة"، (العشي، أسئلة شعرية، بحث في ألية الإبتداع الشعري، 2009، صفحة 138) بحيث يحمل النص البنيات الاجتماعية التي ترعرع فيها، فالنص ليس نصا أدبيا وجماليا فحسب لكنه حادثة ثقافية أيضا،حسب ما يحمله من أفكار وتجارب أكتسبهم المبدع من العالم الخارجي، فيصبح الأديب المؤرخ لتلك الحقبة الزمنية التي عاشها، وهذا يدل على انعكاس

المنارة للاستشارات
ww

ثقافة المجتمع في النص الأدبي، من خلال الفرد (الكاتب)، وبهذا نحاول القبض على مفهوم الثقافة الواسع والذي يشمل كل مجالات الحياة .

2-2 – تعريف الثقافة:

فأصل كلمة الثقافة عند العرب من "الفعل الثلاثي (ثقف) وتعني تقويم الاعوجاج والثقاف هو الآلة التي تسوى بها الرماح، و الملاعبة بالسيف والإدراك والظفر، وضبط المعرفة الملقاة و لتأديب والتهذيب والحذق والفهم" (لبيب، ط1، 2007، صفحة 29). فالثقافة تعني الاستقامة في السلوك والمعرفة، فتصقل وتسوى كما يسوى الرمح بالثقاف فيستوي، وتطورت مفردة الثقافة لتتعدد مفاهيمها ودلالاتها حسب تطور مجالات استعمالها.

حيث يعرفها مالك بن نبي :"على أنّها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الجماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه" (شاهين، 1987، صفحة 83)، فالثقافة كل اكتساب أوسلوك فردي أو جماعي كان، يحصّله الشخص من خلال احتكاكه بالعالم الخارجي فيتأثر به ويؤثر فيه.

فهذا الاكتساب الشامل يعطي لمفهوم الثقافة معنى أشمل من حيث أنّها مجموع التقاليد والأعراف، إلى ميدان أوسع وأرحب يطوّر به الفرد مهاراته ومعرفته الواسعة، فتشمل "الخصوصية الثقافية بوجه عام و تتمثل في اللغة وكل أشكال التعبير الفني والمعايير الجمالية المتمثلات السيكولوجية والمعتقدات الروحية والطقوس الدينية والمنظومات القيمة والسلوكيات الاجتماعية وأنماط العيش الخاصة من مسكن وملبس ومأكل، فهي باختصار حصيلة وزبده كل العناصر التي تميز أمة بعينها عن غيرها من الأمم وتعطيها سمة متميزة وملامح مغايرة تشكل ... قوام الهوية الثقافية والحضارية لتلك الأمة " (العربية، 2017، صفحة 360).

فبعد ضبط حدود هذه الخصوصية الثقافية ندرك معنى الثقافة وتشعبها في كل مجالات الحياة، فهي تتشكل من حصيلة فكر المبدع وكل ما يتلقاه من معرفة وسلوكيات في البيئة التي عايشها وهذا ما يجرنا انعكاس هذا الموجود الثقافي في الإبداعات الفنية المختلفة ومنها النص الأدبي .

2- علاقة النص بثقافة الكاتب:

و إذا أردنا حصر الموروث الجماعي في عصر ما فيكون ذلك عن طريق النص الأدبي، الذي يؤرّخ للإبداعات المختلفة لتلك الجماعة، واللّغة هي المحور الرئيسي التي تتمظهر به عناصر ثقافية شتى: (معرفة

المنارة للاستشارات
ww

علمية، فن، إعلام، تاريخ ... الخ)، فاللغة أساس الثقافة نفسها، "والنص الأدبي وما يحمل من وسائل لغوية وتقنيات تخدم العملية التواصلية ونقل المواضيع والأفكار للمتلقي يكشف عن ثقافة صاحبه فالنص يشكل بطاقة هوية أساسية بالنسبة للكاتب" (حامد، 2012، صفحة 262) فبقدر ما تنعكس خصوصية هذا الكاتب و لمسته إلا أنه لا يتعدى نطاق الجماعة.

فإن القواعد الثقافية ومواضيعها لا تتأسس إلا بفعل وجود مجموعة من البشر يعملون على ترسيخها في المجتمع، حيث أن كل عصر يعرف بالإنتاج الفكري لعلمائه وأدبائه، والنابغين فيه.

_ فيصبح النص حاملا لمرجعية ثقافية اتسم بها المبدع أو الكاتب ، تتمظهر سماتها في النص الأدبي، وتتبلور هذه السمات في كشف حياة هؤلاء الناس في هذا المجتمع، سواء من طريقة اللباس أو التعامل أو الأعراف والتقاليد، إضافة إلى العلوم التي أثرت على تلك الحقبة و إن صح التعبير الثقافة السائدة آنذاك، و بطبيعة الحال العصر الجاهلي يختلف كل الاختلاف عن عصر الإسلام، مما اتسم به الشعر والنص الأدبي مقارنة بحقبة ما بعد ظهور الإسلام، مما كان له التأثير المباشر وغير المباشر، في القضاء على بعض الطقوس والعادات السيئة التي نبذها الإسلام. فكان التأثير واضحا سواء في النص النثري أو الشعري، والذي كان شائعا أكثر.

وهذا ما سنتطرق له في نماذج من نصوص أدبية مختلفة بغية الكشف عن أغوار المرجعية الثقافية التي يتسم بها كل عصر عن غيره حيث يصورها المبدع في النص الأدبي.

3-1- تجليات العصر في الإبداع الفني :

تتمظهر الحقبة الزمنية التي يبدع فيها الفنان في إبداعاته،سواء شاعرا كان، أو رساما أو كاتبا...الخ، بحيث تلمس طابعا خاصا ينفرد بتلك الحقبة عن غيرها من الحقب الأخرى، وعلى سبيل المثال، العصر الجاهلي مثلا يبدو جليا من خلال ذكر ما كان معاشا في تلك الحقبة سواء من الأدوات المستعملة والحياة اليومية، أو من خلال الأغراض المنتشرة مثل المدح والرثاء والغزل والافتخار وغيرها من الأغراض، أو البناء العمودي للقصيدة وترتيبها الوصفي بذكر الراحلة والبيداء والمحبوبة، وهذا دليل آخر على الانتماء، والفكر الاجتماعي الذي يعكسه الكاتب في تجربته الفنية.

_ يقول طرفة بن العبد:

جازت البيد إلى أرحلنا أخر الليل بيعفور خدر

ثمّ زارتني وصحبي هجّع في خليط بين برد ونمر (الصاقل، صفحة 91)

المنارة للاستشارات
ww

فهو يصف الأرض المستوية الصلبة بالبيد التي حطت بها الرحال أثناء السير ليلا، وذكر"اليعفور" وهو الظبي، وهذه دلالات تحيلنا للعصر الجاهلي،حين كان الارتحال من سمات العشائر والقبائل العربية، ووصف الحيوان والبيداء وهذا ما كان يعيشه الشاعر في حياته اليومية فيذكره ويصفه في ابداعه الشعري.

وفي بيت آخر يذكر الرمح التي كانت أداة للصيد، والسرج الذي يحط على ظهر الخيل، والسنابك التي يعني بها مقادير الحوافر للخيل في قوله:

أبـــي انـــزل الجبّار عامـــل رمحـــه عـن السّـرج حتى خر بين السنابـــك (الصاقل، صفحة 103)

فهذه دلالات لأدوات استعملت في زمن معين، وهو العصر الجاهلي وارتبطت أيما ارتباطا بثقافة ذلك العصر وأدواته كالبيداء والخيل والسيف والرمح....الخ.

أمّا في العصر الإسلامي نرى تجلي ظهور الإسلام وتأثيره في الجاهلية في أقوال جل الشعراء إن لم يكن كلهم، حيث استعان الشعراء بالقرآن الكريم والقصص المذكورة فيه، أو عن طريق الاقتباس المباشر لآيات القرآن الكريم.

كما في قول حساب بن ثابت:

أعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يزد بهم الطمع

ـ وقال:

أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم فما وني نصرهم عنه وما نزعوا (نصراوي، 2015، صفحة 26)

فمفردة العفة والوحي لهما دلالة دينية محضة، تدل على تأثر هذا الشاعر بظهور الإسلام و في قوله: " أعطوا نبي الهدى" فذكر النبي صلى الله عليه وسلم. دلالة على أنه شعر ما بعد ظهور الإسلام.

فالشعر هو مركز تناظر للحياة الواقعية في النص الأدبي و" القصيدة رؤية كونية أو شمولية مكثفة للوجود المعاش الذي تعبر عنه تجمع كل المجالات من سياسة واقتصاد واجتماع وثقافة" (العشي، الطبعة الأولى 2009، صفحة 127)، حيث تعكس القصيدة كيان الحدث وزمنه في طيات أبياتها المتناسقة والمتناغمة في موضوع معين.

وكما يقول نزار قباني:" آن المبدع جزء من أرض ومجتمع وتاريخ وموروثات ثقافية ونفسيه وعضوية،و كل كلمة يصفها الشاعر على الورقة تحمل في ثناياها الإنسانية كلها والتجربة الذاتية، التي نظنها صغيرة

المنارة للاستشارات
ww

تأخذ في بعض الأحيان حجم الكون، لذلك فإن خصوصيات الشاعر بمجرد اصطدامها بالورق تتعدى ذاتها، لتصبح فضيحة، فضيحة يقراها العالم" (العشي، الطبعة الأولى 2009، صفحة 139)، هذا له دلالة قوية عن عامل النص الأدبي الذي هو مرآة المجتمع وانعكاس مرجعية ثقافية ترسم الفرد والجماعة، وفي قول فضيحة دلالة عن كشف المستور وهو أحاسيس وتعابير الإنسان الذي يعيش الحياة بمختلف معاناتها ومسراتها، فيصورها لتنطق في التجارب الشعرية "المغامرة الفنية لابد أن يكون زمامها في يد شاعر وليس العكس، ولابد أن تكون محكومة بغاية أنبل وهي إعادة اكتشاف الكون، والفهم الأعمق له، أن تضع في اعتبارها قبل هذا كله طبيعة التكوين الفكري والثقافي والوجداني للإنسان." (زايد، 1997، صفحة 07)، ففي قوله المغامرة الشعرية دليل على الهدف الحساس والأسمى الذي يؤديه الشاعر ليمثّل مجتمعه وذاته، ولم يخص هذا التصوير الدقيق الشعر فقط، بل للنثر الحظ الوفير في هذه الفاعلية وهذا ما سنتناوله فيما يأتي.

3-2- الإبداعات النثرية ذات ناطقة:

أدرجنا هذا العنوان دلالة على أنّ الإبداع الفني كغيره من الإبداعات تتكلم فيه ذات المتكلم أو الناطق إن صحّ التعبير وقرناها بالنطق للدلالة عن أبسط المفردات التي يعبر بها الفرد في مجتمعه،و في حياته اليومية أو في إبداعاته الفنية، وإضافة إلى النصوص العلمية التي تحمل أفكار وعلوم الشخص ذاته، مهما اتسمت بالموضوعية إلا أن اللمسة الذاتية حاضرة في طريقة معالجة الباحث، وكذا الأمر بالنسبة للفنون الأدبية وعلى سبيل المثال الرواية أو القصة أو غيرها، ومهما كانت طبيعتها، تنطبق هي الأخرى وأفكار الكاتب أو ما يدور من حوله في الوسط المعاش، فتمثله عن غيره و تمثل مجتمعه فهو ناطق باسم الجماعة التي ينتمي إليها.

حيث تمثل الرواية تتبع مفصّل للحياة اليومية للأشخاص التي تحرك هذا الفعل السردي بوصفه، خصائص وعقائد وحتى عادات وتقاليد تحملها مكان وزمان الرواية، فتخص بها سمات مجتمع على آخر.

كما ورد هذا في التحليل السميائي للنص الروائي لحسن أحمد أنّ" النص الروائي هو جزء مشتق من اللّغة الثقافية والمعرفية،لا يتوقف الأمر عند تحليله على النسق العام الذي أنتج ضمنه وإنما لابد من الالتفات إلى فنية مقاطعه وجمله وألفاظه المنسوجة في إطار السياق" (حامد، 2012)، فيمثل السياق الأحداث المتتابعة في النص الروائي، والسياق يعني الوضع الذي جرت فيه أحداث الرواية من جهة و حالة الكاتب أثناء سرده لهذا التسلسل الحكائي.

المنارة للاستشارات
ww

فإذا تناولت رواية "اللّص والكلاب" لنجيب محفوظ، تلاحظ سمات المجتمع المصري في أحداث الرواية والثقافة الدينية والأعراف والتقاليد، التي تسود هذا المجتمع فهروب البطل {سعيد مهران} إلى شيخ المسجد ليوجهه، دليل على أن هذا أدب عربي تدور أحداثه في مجتمع إسلامي، حيث يمثل إمام المسجد الملجأ الآمن، كما تلمس في الروايات الجزائرية كذلك عادات وتقاليد جزائرية لا يمكن فصلها عن يوميات الجزائري مثل : روايات عز الدين جلاوجي، الواسيني لعرج، الطاهر وطار وغيرهم من الروائيين، حيث تدور أحداث الرواية الجزائرية في مجتمع بدوي أو حضاري كلاهما تجد دلالات مختلفة عن هذا المجتمع مثل: البرنوس، القندورة، الطربوش، دلالة عن اللباس العربي، والسرج، السوق، القوال الذي يجوب الأسواق ويروي شعرا أو قصصا، حياء الفتاة العربية،...الخ، من الدلالات المختلفة التي تبين انه مجتمع عربي مسلم. كما أنّك تلاحظ نفس السمات في الأدب الأوربي كذلك مما يدل على خصوصيته، مثل لجوء المذنب إلى الدير أو الكنيسة بحثا عن القديس أو الرهبان ليكفر عنه ذنوبه، لأنّة معتنق المسيحية فترى هذه الطقوس في أحداث الأدب الأروبي عامة والرواية خاصة.

3- الثقافة أصالة ومعاصرة:

يعتبر التناص وسيلة تكشف عن أغوار التفكير الإيديولوجي للكاتب، فلا يمكن أن نصف الشخص بالمثقف ما لم يكن لديه إطلاع و إن لم يكون دقيق، عن تراث شعبه ومعاصرته لما يحدث في الوسط بصفة شاملة، فيجمع بين الأصالة والمعاصرة، كما يتأثر و يؤثر في غيره ومجتمعه، فحصيلة ثقافته تكون من مجتمعه، وهذا لا ينفي اطلاعه على ثقافة المجتمعات الأخرى الأجنبية عنه، والتعرف على أبز السمات الشائعة، الخاصة بكل أمّة أو مجتمع على حدى، وهذا ما يعزز معرفته وسعة الفكر مما يتعدى بؤرة وسطه، تقول نازك الملائكة:"أنّ الشاعر من يملك ثقافة عميقة تمتد جذورها في صميم الأدب المحلي قديمه وحديثه، مع اطلاع واسع على أدب أمّة أجنبية واحدة على الأقل بحين يتهيأ له حس لغوي قوي لا يستطيع معه، إن هو خلق،إلا أن يكون ما خلق جمالا وسموا، فإذا خرق قاعدة، أو أضاف لونا إلى لفظة، أو صنع تعبيرا جديدا أحسسنا أنّه صنع، وأمكن لنا أن نعد ما أبدع وخرق قاعدة ذهبية" (العشي، أسئلة شعرية بحث في آلية الإبتداع الشعري، الطبعة الأولى 2009، صفحة 200) فهذا الخرق والخروج عن المألوف يعد إبداعا، ويكون التجديد في ظل المحافظة على القالب التراثي وعدم نفي الهوية القومية للمبدع، ليتحقق القبول والانسجام في النص الأدبي الذي ينقل إيديولوجيات مختلفة للقارئ، وبهذا الصدد يرى "روبرت ألان ديقرادند :"أنّ النص هو حدث تواصلي يلزم كونه نصا أن يتوافر له سبعة معايير للنصية

المنارة للاستشارات
ww

مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد من هذه المعايير" (الفقي، 2000، صفحة 145) ، وتخصّ هذه المعايير النص، من منظور اعتماد (المتحدث، المتلقي والسياق المحيط بالنص)، وتتمثل في الإتساق، الإنسجام، القصدية، المقبولية، الإخبارية، الموقعية، التناص، فمهما تمرد المبدع عن ثقافته فهو يصقل ثقافة اكتسبها، ويظهر هذا جليا في عملية التناص الذي يكشف عن اتساع معرفة هذا الأخير وأرجاء تصوراته، التي يفك شفراتها القارئ، مثلما ذكر الدكتور مجدي فرج: " فعند اكتشاف النظام الدلالي الذي ينبني عليه النص، يتسنى للقارئ تفكيك كل ما تعرض للتطبيع الثقافي الذي يفرض نظاما مهيمنا " (فرج، 2009، صفحة 20)، أي تفكيك النظام الذي تناوله الكاتب في نص سابق، ليبني نظاما جديدا في نصه المبدع.

4-1 – النص الأدبي ثقافة المبدع:

مهما كانت طبيعة النص الأدبي، فهو يحمل ثقافو معينة أو أيديولوجية معينة يبلورها المبدع لإنشاء عمله الفني، ومن خلال جميع النصوص أو المعارف التي اكتسبها المبدع يبني الكاتب مولوده الجديد في حلته وبصمته **الخاصة ما يتوافق وثقاته،** "و كأن النصية في الفن والأدب قد أوضحت لنا الطابع النصي للوجود بشكل عام فالعالم ما هو سوى نص مكتوب تتأسس قواعدها على منظومة من العلامات تتطابق فيها الكلمة والصورة معا..." (فرج، 2009، صفحة 28) ، فالعلامات التي تشكل النص ما هي إلا تفاعل مع نصوص سابقة وجدت قبله،حيث " أفضت القراءة النصية إلى التفاعل القائم بين النصوص كافة وقربت بين المدارس النقدية التي تؤكد مرجعية النصوص.... وربما كانت تلك الدراسات إرهاصا لظهور دراسات ثقافية التي طرحت على الساحة مفهوم التمثيل الثقافي" (فرج، 2009، صفحة 29)، فيمثل النص الأدبي التمثيل الثقافي الذي تحمله جماعة عن غيرها، ينقله المبدع بالنيابة عن مجتمعه، وبمقاربة الأدب بوصفه، "تمثيلا ثقافيا والثقافة كنتاج لعلاقة تبادلية متواصلة بين قراء ونصوص متنوعة، سوف يتنبّه المشتغلين بالأدب أنّ ما كان بعد "دالا آخر" تحمله الصورة أو اللّغة المرئية يكمن في ثنايا النص الأدبي" (الغذامي، 1985)، فهذا التبادل الثقافي ومكونات الجماعة الفكرية يخطط في نصوص أدبية محضة، فاشتغال النص يدل على فاعلية ثقافية " لكي يتجلى في النص قيام مادته على مستندات شرعية ثقافية معينة يتطلب الأمر تحديد مدى اشتغاله على آليات حركية للمجتمع الذي يصوره، وكيفية نقله للمظاهر التي تتعلق بالثقافة السائدة فيه، والتي تعتمد على مجموعة من الأشياء والدلائل القابلة للفهم" (مسدي، د تاريخ، صفحة 79) فالنص الأدبي حامل ثقافة مجتمع من خلال ذات مبدعة.

المنارة للاستشارات
ww

4-2- التناص كاشف الثقافة:

يعد التناص كاشف عن ثقافة الشخص ومكاسبه المعرفية والاجتماعية والنفسية بحث ينتقي من النصوص أو المعارف التي تناولها ما يتوافق وأيديولوجياته الفكرية، سواء كان الأخذ لفظيا، أو التعالق مع نصوص أخري، فأي نص هو مركب من نصوص سابقة تحلل في ذهن الكاتب فيركب على سبيلها.

و هذا ماتتناوله جوليا كرستيفا في مجموعة من الملاحظات: " ويعد التناص من آليات الكشف عن هذه الثقافة ومكنونات النص الأدبي الذي ينشأ من تعانق نصوص سابقة تراكمت في ذهن الكاتب، وكما درست جوليا كرستيفا علاقة التناص بعملية الكتابة الأدبية من منظور سميائي ومن جملة ملاحظاتها ما يلي:

_التناص هو مزية أساسية من مميزات النص تحيل على نصوص أخرى سابقة له أو معاصرة ممتص إياها ومحولا أنساق دوالها إلى نسقه اللغوي المنتج.

_الكتابة هي فعل الماضي الحاصل قبل وصفه فيها.

_ إن جذور الكتابة الروائية منبثقة من الحديث ألشفاهي المسمى(بالكلام).

_الكلام في مفهوم كريستيفا هو ما يحمل مضامين ثقافية متنوعة (حامد، 2012، صفحة 305)

وهذا يعد تصريحا واضحا لجوليا كرستيفا على أنّ النص الأدبي هو ذات المبدع وخلفياته الإديولوجية تحت سيطرة الثقافة التي نسيطر على الذات المبدعة.

و يمكن الأخذ من النص سواء شعرا كان أو نثرا كتضمين الشاعر أبيات أو صدر أو عجز من قصيدة لشاعر آخر، وتضمينه في شعره، من ذلك قول الشاعر:

فبت و الأرض فراشي و قد غنّت " قفا نبك " مصاريني

فقوله (قفا نبك) مأخوذة من مطلع معلقة امرئ القيس" (حامد أ.، 2001، صفحة 43)، نظرا للقيمة الفنية لهذه القصيدة وللشاعر نفسه، يستعير الشاعر هذه الدلالة لتقوية التعبير عن المعاناة.

كما يمكن الأخذ من القرآن الكريم أو الحديث الشريف لفظيا، ليسمى هذا اقتباسا وبهذا نلمس البعد الديني أو الإسلامي خاصة، مما يكشف عن توجه الكاتب وديانته المتشبع بها، ويتبين هذا من خلال نسج الكاتب على منوال القرآن أو أخذ بعض المفردات أو الآيات القرآنية، ونذكر مثلا قول نزار قباني في قصيدته:

_فالجند في الدلتا

المنارة للاستشارات
ww

ليس لهم أن ينظروا إلى الوراء

أو يدفنوا الموتى

وصبيحة الغد، المنتصر، الميمون

.....

(...و التين و الزيتونْ

و طور سنين، وهذا البلد، المحزون

لقد رأيت يومها: سفائن الإفرنج

تغوص تحت الموج

وملك الإفرنج

يغوص تحت السرج

وراية الإفرنج

تغوص، والأقدام تفرى وجهها المعوّج

....وهاأنا –الآن– أرى في غدك المكنون

صيفا كثيف الوهج (الزواهرة، ط 1 ، 2013، صفحة 109)

ومن هذه الأبيات يتبين اقتباس الشاعر الآية القرآنية لقوله تعالى في سورة التين : "والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين " واستبدل كلمة البلد الأمين بالبلد المحزون ،للدلالة على حالة الحزن وعدم الأمان، حيث كان الاقتباس لفظيا في (التين والزيتون) و قوله (هذا البلد المحزون) حيث استبدل (هذا البلد الأمين)، وهذا ما زاد من قوة التصوير والدلالة على الحزن والأسى.

ونلاحظ كذلك محمد حسن اسماعيل في قصيدة "بغداد" في قوله:

من ها هنا ..و النور لم يغفل سناه أبدا

ورواية الإسلام لم يترك ضحاها أحدا

و كيف؟؟ و السماء خطت فوقها "محمدا"

محرر الإنسان، داهي الرق و الهوان في جبينه

بثورة شبت على تكالب الأغلال في يمينه

فذوبت قيـــــــوده بصيـــــــــحة القرآن

المنارة للاستشارات

ww

وأضرمـــــــــت وقوده في جبـــهة الطغيان
وحررت وجـــــوده من قبضـــة الأوثـــان
وحرمـــــــت سجوده إلاّ إلى الرحمـــــــان (زايد، 1997، صفحة 07)

"ملامح إسلامية وضيئة، وهذه الملامح ذاتها ذات طابع إجتماعي، بحيث تتعانق الأبعاد الثلاثة (ديني، اجتماعي، إنساني)، عناقا حميما في مثل هذا المقطع" (زايد، 1997، صفحة 31)، حيث تحيل العبارات المذكورة عن الدين الإسلامي في ذكره، (الإسلام، محمدا، القرآن، الأوثان، سجوده، الرحمان) فهي دلالات دينية محضة وإسلامية خاصة.

4-3- التأثر بالثقافات الأجنبية:

ومن خلال التحدث عن التأثر بالوسط الذي يعيشه الكاتب نتطرق لقضية الهجرة للبلدان الخارجية، أو التشبع بثقافتهم بطريقة أو أخرى، حيث له لمسة واضحة في الإبداع الفني لهؤلاء، وهذا ما جعل تسميتهم بأدباء المهجر

_ فالتأثر بالثقافات الأجنبية يظهر جليا عند الكتّاب المهاجرين للبلدان الأوربية وغيرها ونذكر على سبيل المثال المبدع والكاتب " جبران خليل جبران " من المبدعين اللّذين ظهر تأثرهم بالثقافات الأجنبية للهجرة إلى أوروبا وأمريكا، مما أثّر في ثقافته الشخصية العربية و "هكذا يمكن القول إن جبران رغم وضوح انتمائه الحضاري إلا أنّ تراث الإنسانية كان تراثه بحكم عمق تجربته واتساع أسفاره و تقلبه في جهات الأرض وقاراتها سفرا و ثقافة ولغات" (العظمة، 1987، صفحة 44)، فكلما كثرت الأسفار ومخالطة الشعوب زادت معرفة الفرد وثقافته، وتشبع خليل جبران بالديانة المسيحية و"ومسيحية جبران تقترن بالبوذية لتأكيده إلى جانب المحبة على تناسخ الأرواح وتقمصها" (العظمة، 1987، صفحة 45)، ويظهر هذا في أقواله عن تناسخ الأرواح وعن المسيحية، حيث يقول :"لا....إنّي متأكد أن يسوع لم يرجع إلى هذه الدنيا كإنسان و إلا لعملنا به لا محالة...وأحس إحساسا أكيدا أننا عشنا من قبل، ففي قرارة نفسي اختيارات شخصية تؤكد لي أنّي قد عشت أكثر من مرة فيما سبق،وإنني متأكد تمام التأكيد من أنني عرفتك منذ ألاف السنين" (العظمة، 1987، صفحة 195). فهذا النص يكشف عن إيمان جبران بتناسخ الأرواح ، " فإيمانه بالتقمص و تناسخ الأرواح لا يخون أصوله الهندية، فهو يشير في كلمة أخرى إلى بوذا إشارة صريحة في معرض تحديده لعلاقة الأنا بالأخر، والروح الجزئية بالروح الكلية" (العظمة،

المنارة للاستشارات
ww

1987، صفحة 195)، وهذا يمثل الثقافة الواسعة التي اكتسبها الكاتب من تأثّره بالثقافات والديانات المختلفة.

كما كان من الكتاب المتأثرين بالفكر الفلسفي و الصوفي :"و كما أن جبران لم يكن صوفيا، وكذلك لم يكن فيلسوفا، بل كان كاتبا شاعري المزاج، متأثراً بالأفكار الفلسفية والتصورات المثالية والصوفية للعالم والحياة والموت، وهو أقرب إلى شخصية الشاعر الذي يحدس الأشياء والعالم، ويتصوّر مدينته الآثمة والفاضلة هنا على الأرض وفي ضوء المثل الأعلى" (العظمة، 1987، صفحة 211)، فأعماله مثل قصيدة "سكوتي إنشاد"، وتعليقاته النقدية على الغزالي وابن سينا وحكاية "ارم ذات العماد" تمثل ذروة التأثر بالأفكار الصوفية فهما واستيعابا ومعنى .

فقصة "ارم ذات العماد" تحمل أراء صوفية وفلسفية والتي تمثل وحدة الإله ومرد الوجود لله :"فنظرية وحدة الوجود التي ينادي بها المتصوفة تقول بأن الجوهر، الله ، يأتي أولا، وكل شيء من الكائنات إنما هو مظهر عنه، وتعدد الوجوه ما هو في الحقيقة إلا صدورا عن الواحد" (العظمة، 1987، صفحة 233). يستعير جبران المقولة الصوفية (لا موجود سوى الله) فالمضمون الميتافيزيقي الماورائي لهذه العقيدة هي وحدة الأديان وخاصة الإسلام والنصرانية" (العظمة، 1987، صفحة 238) هذا الفكر الذي يتحدث به جبران يمثل إطلالته الواسعة على الديانات المختلفة وفكره الفلسفي المتمعن هو ما جعله يؤمن بوحدة الأديان ووحدانية الله، وهذا ما يدل على تقبله لثقافات العالم الدينية وفهم معتقداتها.

يقول جبران في قصيدة :"يا من يعادينا "

وابغوا وجوروا وارجموا واصلبوا فالروح فينا جوهر لا يضام

إن تحسبونا ثلمة في الأثير لن تستطيعوا رتقها بالكلام (العظمة، 1987، صفحة 241)

فيتبين من خلال هذه الأبيات إن الكاتب يرى النفس بقوة جوهرها فلا يهزمها العدو مهما تصدى له، ويظهر قوة الإيمان في داخله مهما كان المرجع الخفي وراء هذا الاعتقاد القوي، بحيث "يستعير منشئ النص الأدبي أحيانا تعبيرات مضمونية أو شكلية...ذلك ناتج عن تأثره بمجموعة كبيرة من القراءات والمطالعات التي على إثرها يتكون رصيده المعرفي والفكري،بما في ذلك من نصوص دينية أو شعرية أو تاريخية أو حكم مأثورة....الخ" (حامد د.، 2012، صفحة 302).وبهذا يعتبر جبران خليل جبران نموذجا حيا عن سعة الثقافة والفكر والانفتاح على الآخر وتقله.

الخاتـــمة :

المنارة للاستشارات
ww

تتبين لنا قيمة النص الأدبي في كشف المرجعية الثقافية للكاتب وتصوير حضارة الأمة في عصور مختلفة، تنتقل بانتقال هذا النص عبر الحقب الزمنية المختلفة، فبالنص الأدبي وصلتنا عدة حضارات قديمة سواء عن طريق المخطوطات أو الكتب...الخ من الفنون الأدبية المختلفة، فمهما كان خيال المبدع إلاّ أنه لا يستطيع أن يخرج بخياله عما كان في مقدوره تصوره ومنطقيا التصور الذهني مقرون بالمعطيات التي يكتسبها الكاتب في وسطه المعاش ومن هذا الخيال مقيد بما يتأثر الشخص بالعالم الخارجي أو ما كان قد تعرض له في حياته وترجمه عقله لصورة من الصور الذهنية التي يفككها العقل ويعطي لها معنى وتسمية تقترن بالشيء ذاته.

فيمثل الفنان دورا هاما في الكشف عن العلاقة الحوارية بين المرئي والمكتوب مما يفتح أفاقا جديدة للممارسة الثقافية تساعد على إقامة حوار عالمي بين الثقافات دون التخلي عن خصوصية الهوية التي ينفرد بها كل مجتمع عن أخر و مقومات الأمم المختلفة.

فالكاتب هو عصارة المجتمع وكل ما يحتويه من معتقدات وتقاليد وأفكار ثقافة طريقة اللباس طريقة العيش ...فيرمي أحماله على النص الأدبي ليرسم الخطوط العريضة لهذا المجتمع ومكنوناته وينتقل عبر كل زمان ومكان مقروئية هذا النص، فموازاة بنقل النص الأدبي لتجربة شعرية يعتبر كذلك إسقاطا ورد فعل لتأثير عاشه المبدع في وسطه المعاش فيعبر عن ما يخالجه في نفسه ومايتصوره في ذهنه.

قائـــمة المصـادر و المراجـــع:

أحمد حسن حامد. (2001). *التضمين في العربية*. عمان الأردن: دار الشروق للنشر و التوزيع .

الدكتور علي عشرى زايد. (1997). *قراءات في الشعر العربي المعاصر*. القاهرة، مصر: دار الفكر العربي للنشر و التوزيع و الطباعة.

المجلس الأعلى للغة العربية. (24-25 ديسمبر, 2017). أعمال ملتقى اللّغة العربية و الترجمة . *أعمال ملتقى اللّغة العربية و الترجمة* ، صفحة 360.

أيمن نصراوي. (11 سبتمبر, 2015). *الشعر العربي في عصر صدر الإسلام*. تاريخ الاسترداد 15 فيفري, 2018، من ويكيبيديا .

المنارة للاستشارات

ww

د، لطفة حسن حامد. (2012). *التحليل السميائي للفن الروائي دلراسة تكبيقية لرواية زيني بركات*. الإسكندرية: دار الكتب و الوثائق القومية المكتب الجامعي الحديث.

د، مجدي فرج. (2009). *القراءة النصية في الأدب و الفن* . القاهرة: دار الكتاب الحديث.

د، ندير العظمة. (1987). *جبران خليل جبران في ظل المؤثرات الأجنبية دراسة مقارنة*. دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر.

دنيس كوش، ترجمة د. منير السعيداني، مراجعة د.الطاهر لبيب. (ط1، 2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية*. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، مركز الدراسات العربية للترجمة.

شرح الأعلم الشمنتري، تحقيق دربة الخطيب ولطفي الصاقل. *ديوان طرفة بن العبد*. بيروت ، البحرين: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، دائرة الثقافة و الفنون.

صبحي إبراهيم الفقي. (2000). *علم اللّغة النصي بين النظرية و التطبيق(دراسة تطبيقية على السور المكية)*. القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر .

ظاهر محمد الزواهرة. (ط 1 ، 2013). *التناص في الشعر العربي المعاصر*. الأردن ، عمان : دار حامد .

عبد السلام مسدي. (د تاريخ). *الأسلوبية و الأسلوب*. الاسكندرية: الدار العربي للكتاب.

عبد الله العشي. (الطبعة الأولى 2009). *أسئلة شعرية بحث في آلية الإبتداع الشعري*. الجزائر: منشورات الإختلاف.

عبد الله الغذامي. (1985). *الخطيئة و التفكير من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية كنموذج إنساني معاصر*. جدة السعودية : النادي الأدبي .

مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين. (1987). *شروط النهضة،مشكلات الحضارة*. سوريا، دمشق: دار الفكر للطباعة و النشر .

المنارة للاستشارات

ww